الوعي بالأندلس

الأندلس الفردوس المفقود أرض العرب الغاربة نزحوا عنها وتركوا آثارهم فيها. وكان أبلغ الآثار اللغة والثقافة، وهما القوة الناعمة التي تعد أبقى القوى. فما زلنا بعد مرور ما يزيد على خمسة قرون من الزمان على ذكر بالأندلس وحضارتها وما صنعه العرب والمسلمون وما تركوه من آثار معمارية، وآثار أدبية هي بالقطع أقوى من الأيام وأخلد على مر الأزمان.

ومن هذه الآثار الأدبية دواوين الشعر الأندلسي لكبار الشعراء من أمثال ابن زيدون وابن خفاجة، ونصوص فن الموشحات، ذلك الفن الذي انفردت به الأندلس في تاريخها من بين ما انفردت به، مع الزجل، وغيره من فنون القول ولا ننسى آثار ابن حزم ولا ابن رشد ولا ابن طفيل، وغيرهم من كبار القوم في مدارج الرقي العقلي.

وابن الأبار أحد أهم الشعراء الأندلسيين الذين صوروا محنتها على يد أبنائها، ومحنة أبنائها على يد حملات التطهير المسيحية التي رفعت راية المسيح وهو منها برئ، والدراسة التي بين أيدينا هي واحدة من الدراسات الأدبية البلاغية التي دارت حول شعر ابن الأبار ويبدو أن شعر ابن الأبار لم ينل في الوقت الحاضر قدرا ملحوظا من اهتمام معاهد الدرس الأدبي في المشرق العربي، لذا تأتي هذه الدراسة لتضع علامة فارقة بين مرحلتين: مرحلة سابقة لم يكن ابن الأبار فيها معروفا ولا واقعا في بؤرة الأضواء، ومرحلة لاحقة بعد صدور ديوانه محققا والتفات الدارسين المغاربة إليه.

وكان اهتمام الباحث أحمد الشوادفي –صاحب هذه الدراسة- كان اهتمامه بدراسة صورة الا ستعارة عند ابن الأبار اهتماما محمودا لأنه ذكرنا بواحد من شعرائنا المغاربة، ولأنه آثر أن يكشف أبعاد صورة الاستعارة في شعره، فتحدث عن الاستعارة في ذاتها، ثم انتقل إلى الحديث عن الاستعارة كما قدمها ابن الأبار، وكان هذا الحديث على مراحل بدأت بالحصر والتصنيف ثم تلا ذلك رد الصورة

الاستعارية إلى مصادرها التي تعددت، ثم تناول مدارات الدلالة التي شغلت عنده جانبا مهما من الحقول الدلالية.

وهذا اللون من الدراسة نشجع عليه الباحثين والدراسين كما نشجعهم على البحث عن النصوص المجهولة وتقديمها إلى بساط البحث الأدبي وهذا جهد مشكور له إذا علمنا أن هذه الدراسة هي أطروحته الأولى للماجستير التي نال إجازتها من كلية الآداب جامعة الزقازيق. وبما أنها كذلك وجب علينا أن ننظر إليها بعين الود لا بعين النقص، لأن ال عين تخطو إ لى الأمام أما الثانية فتجرنا إلى الوراء أو على الأقل تجعلنا في أماكننا لا نتحرك. لذا أدعوه إلى إكمال طريقه واكتمال أدواته لنسعد به دوما إن شاء الله.

أ.د/ أحمد يوسف علي

أستاذ الأدب والنقد والبلاغة

وكيل كلية الآداب للدراسات العليا بجامعة الزقازيق

٢٠٠٧/١١/٢٨

obeikandl.com

المقـــدمة

الحمد للّه، الأول بلا بداية، والآخر بلا نهاية، توضاع كل شيء لعظمته، وذلك كل شئ لسلطانه، وأشهد أن لا إله إلا اللّه، وحده لا شريك له، شهادة تقوم ببعض ما يجب علينا، لسابغ نعمه، وواسع كرمه، وعظيم فضله، ومتتالي آلائه، شرف أهل الفضل من العلماء الكرام، فأعلى مراتبهم، وبأهم أسمى مقام، فجدعلهم أحق من يتبع، ورفع دراجاتهم، لقوله تعالى (يرفع اللّه الذين آمنوا منكم والذين أتوا العلم درجات)، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وأما خلقه وحبيبه، معلم البشرية، وسراجها المنير، تركنا على المحجة البياضا، ليلها كنهارجها، لا يزيغ عنها إلا هالك، لقوله صلى اللّه عليه وسلم «تركت فيكم، ما إن تمسكتم به، لن تضلوا بعدي أبد: كتاب اللّه وسنتي».

إن كثيرا من الكنوز المعرفية لعربية والإسلامية القديمة ما زالت مطمورة في ردهات المكتبات في الداخل والخارج، وهى بحاجة إلى قراءة مظائها و متونها، ومساءلة مناهجها، حتى نتمكن من الاستفادة من تجارب أصحابها، وفى الوقت نفسه تطوير آفاقنا المعرفية.

و يعد محمد بن الأبار القضاعى البلنسى واحداً من أصحاب تلك الكنوز الشعرية الأندلسية، وابن الأبار لم ينل بعد كل ما يستحقه من دراسات واسعة للكشف عن جوانب عبقريته وإبداعه، فلقد أغفله النقاد والباحثون، على الرغم مما آوتى من موهبة شاعرية وفطنة، تضعه على القمة بين شعراء الأندلس، ليس فقط من أجل ملكاته الشعرية والإبداعية، بل من أجل إحساسه العميق والصادق بقضايا وطنه، التي سخر في خدمتها كل طاقاته الإبداعية والإنسانية، فلقد كان صاحب تجربة عميقة في مستواها الشعري والإنساني.

لقد كانت حياته مأساة كبرى، ويكاء اً متصلاً على الانهيار الحضاري في أندلس الإسلام، وعودتها إلى أسر الصليبين، فكافح وناضل وجاهد بنفسه ويكلمته من أجل تحريرها ونصرتها، وفى سبيل هذا الهدف النبيل، لقي نهاية مفجعة لا

تتناسب مع ما قدمه هذا الرجل في سبيل خدمة الإسلام والمسلمين، فقد قتل " قعصاً بالرماح وأحرقت جثته ومعها كل مؤلفاته.

ولقد تكررت عملية الإحراق للكتب والأشخاص في عدة محطات من تاريخ الأندلس حدث ذلك مع ابن حزم وابن رشد، وابن الأبار، وابن الخطيب، ولا أحد يجادل في علو كعب كل هؤلاء الأفذاذ، فألسنة اللهب والنيران لم تطل سوى كتب يشهد لأصحابها بالجدة وبخلخلة المألوف، وجميع هؤلاء مارسوا الشأن السياسي وابتلوا به، فربما يكون ذلك سبباً وراء مأساتهم،كل هؤلاء حملوا على عاتقهم قضايا ومبادئ جندوا في سبيل تحقيقها كل ما يملكون، فهم أشبه بسلسلة متصلة تسلم حلقاتها بعضها بعضاً.

ومن مصادفات القدر العجيبة أن يولد ابن الأبار في نفس العام الذي توفى فيه أحد كبار رجالات العلم والفكر في بلاد الأندلس وهو ابن رشد، الذي حفظ لنا التاريخ قصة التنكيل به وبفكره ومؤلفاته التي أحرقت بأمر الخليفة المنصور، وتشاء الأقدار أن يكون مصير هذا المولود هو نفس مصير ابن رشد، فقد أعدم وأحرق مع كتبه على يد المستنصر أمير تونس.

ولعل أعداؤه أرادوا محوه من ذاكرة التاريخ،إلا أنهم اصطدموا بقامة شاعر،ومفكر شامخ صاحب قضية، فضاعوا أمام صوته الهادر بالحق،وبما يعتقده ويراه دونما خوف من أحد، فإذ بذاكرة التاريخ تزداد تعلقاً به، ويكتب له الخلود وتمنحه لقباً عزيزاً غالياً " شهيد الشعراء " وما أشرفه من لقب، حينما ينال الإنسان الشهادة في سبيل الدفاع عن قضايا وطنه ودينه.

وحينما يطالع الباحث ظاهرة علمية موسوعية في حجم ابن الأبار، ويقترب من نسيجه الشعري المتميز، ويدمن السفر والترحال في عوالمه وآفاقه، ويسافر نحو أيامه الشعرية، يصبح متشتت الذهن بين تجاذبات متعددة المنابع، لكثرتها و وفرة فيضها.

أسباب اختيار البحث :

تعود أسباب اختيار البحث لشعر ابن الأبار موضوعاً له إلى ما يلي : -

أولاً : إلقاء الضوء من خلا ل البحث الأدبي على ديوان ابن الأبار الشعري، والذي لم يشر إليه أي باحث من القدماء أو المحدثين، ولم ينظر إليه إلا في العصر الحديث، عندما قام الدكتور عبد السلام الهراس، بجمعه وتحقيقه ضمن أطروحته لنيل درجة الدكتوراه الدولية من جامعة مدريد بأسبانيا في كلية الفلسفة والآداب، وقد كان اكتشاف هذا الديوان حدثاً ذا أهمية كبرى، تردد صداه في مجالس البحث الأدبي سواء في المغرب أو أسبانيا، لأنه يعكس بصدق وعمق الموضوعات والقضايا والخصائص الفنية في عصره.

ثانياً : تعد الصورة الاستعارية سمة متميزة في نسيج ابن الأبار الشعري، فكان ذلك داعياً إلى محاولة استقراء وتحليل الاستعارة لديه، وما تعكسه من رؤية ابن الأبار لنفسه أولاً، ولمجتمعه ثانياً، ولأمته ثالثاً.

ثالثاً : إن النصوص الشعرية في ديوان ابن الأبار تتميز بانتمائها إلى فضاء ثقافي يختلف نوعياً عن فضاءات سابقة كانت في المشرق، ونقصد بذلك علاقة الكتابة الشعرية بخصوصية الشاعر، فلقد كانت الخلفية الثقافية لآخر رجال الأندلس كاتباً وبليغاً وشاعراً، كانت غير الخلفية التي عاشها الكثير من الشعراء في المشرق بكل مكوناتها السياسية والفكرية والثقافية، بالإضافة إلى امتلاك تلك النصوص لذاكرة شعرية مشرقية من حيث مصادر التكوين والمرجعيات، وسعيها إلى التجاوز الضمني للتخلص من سلطة النماذج التقليدية.

كما أن تلك النصوص الشعرية تمتلك أسئلة جديدة حول الذات، والمجتمع الأندلسي، والثقافة العربية الإسلامية، والتاريخ الحضاري الإسلامي في تلك الحقبة التاريخية الفاصلة، كأنظمة مادية ورمزية متفاعلة بدورها في إنتاج الذات الإبداعية.

رابعاً : إن ابن الأبار رجل يستحق التكريم، لعلمه وأخلاقه، وغيرته على دينه ووطنه، فلقد بقي كيانه أندلسياً خالصاً بما كان ينفث من حسرات، ويصعد الآهات

على مصيرها المؤلم، ولم يهاجر من وطنه إلا ليطلب له النصرة والنجدة، فهو بحق رجل وفى لوطنه. كما تعد شخصيته العلمية وإنتاجه الموسوعي، حلقة وصل بين المغرب والمشرق الإسلاميين.

هدف البحث :

يرمى البحث من وراء هذه الدراسة، إلى دراسة الصورة الاستعارية في شعر ابن الأبار، وتصنيفها تبعاً لمصادرها الدلالية، ثم تحليل الصورة الاستعارية في مستوياتها اللغوية، والتركيبية، والنفسية، للوصول إلى دلالتها الفنية والإنسانية.

فهدف الدراسة ليس فقط قراءة شعر ابن الأبار بوصفه نتاج شخصية عبقرية شاعرية فحسب، بل تحديد مدى قدرة ابن الأبار وبراعته ـ من خلال استخداماته للصورة الاستعارية ـ على نقل انفعاله وفكره وتوصيل رؤيته وإحساسه للمتلقي.

منهج البحث :-

إن العودة إلى التراث الأندلسي واستبار موقفه، لا يمكن إلا أن يكون في ضوء معارفنا الحديثة، وفى سياق تطور النظريات النقدية ومناهج القراءة الحديثة.

وفيما يتعلق بمنهج البحث، استخدم الباحث نظرية المجالات الدلالية في التعامل مع استعارات ابن الأبار، وتقوم هذه النظرية على تصنيف المادة العلمية موضوع البحث إلى مجالات دلالية عامة وأخرى فرعية، ثم القيام بتحليل وقراءة نتائج هذا التصنيف والإحصاء، بهدف الوصول إلى أفضل نتائج وسيكون هذا المنهج الدلالي بمثابة الركيزة الأساسية التي سيعتمدها البحث في التعامل مع الصورة الاستعارية عند ابن الأبار، كما عمد الباحث إلى استخدام الإحصاء والتحليل للوصول إلى أفضل نتائج ممكنة

تقسيم البحث :-

جاء البحث مجملاً في مقدمة وتمهيد وأربعة فصول وخاتمة وفهرس لأهم المصادر والمراجع التي اعتمد عليها.

عرض في التمهيد قراءة تاريخية لابن الأبار وحياته والظروف السياسية والعلمية التي نشأ فيها، ومزج البحث بينها وبين أثرها في تكوين شخصيته الشعرية والعلمية والنفسية.

وفي الفصل الأول، عرض البحث تقديماً مفهومياً للاستعارة في ضوء معطيات النقد القديم ومباحث النقد الحديث، للوقوف على المفهوم الذي سينطلق منه البحث في معالجة الاستعارة عند ابن الأبار.

وفي الفصل الثاني، قدم البحث تصنيفاً دلالياً لمصادر الاستعارة لدى ابن الأبار، حيث تم حصر الاستعارات في الديوان، وتقسيمها دلالياً تبعاً لمصادرها إلى مجالات دلالية عامة وأخرى فرعية.

وفي الفصل الثالث، عرض البحث لتحليل هذه المصادر، التي اعتمد عليها ابن الأبار في استقاء صورته الاستعارية، لقياس مدى تفاعله معها في إطار نسيجه الشعري، كما عرض البحث لنماذج استعارية توضح لنا رؤية وفلسفة ابن الأبار لتراث الشعراء من قبله لقياس مدى تفاعله معه، ومدى تقليديته ومدى براعته في نسج صور مبتكرة.

وفي الفصل الرابع، قام البحث بدراسة الاستعارة في مستواها اللغوي والتركيبي للوقوف على مدى صفاء ونقاء هذه الصور الاستعارية، واستغلاقها، وإبهامها، وإبهامها، وفي كل حالات خلقتها البلورية، ومدى استجابتها وقدرتها على التعبير عن تجربة الشاعر وإيصالها للمتلقي.

وجاءت الخاتمة، لتحتوى على أهم النتائج التي توصل لها البحث، مع بعض التوصيات المقترحة لدراسة ابن الأبار كنموذج فريد ومتميز ومعبر عن تلك المرحلة التاريخية الهامة في تاريخ وأدب الأندلس، والمغرب الإسلامي.

وأخيراً عرض لأهم المصادر والمراجع التي اعتمد عليها البحث.

والله تعالى نسأل أن يجنبنا الخطأ و الذلل غير المقصود، فما في هذا البحث من مواطن قوة وصواب يعود الفضل فيه لله تعالى ثم للأستاذ الدكتور أحمد يوسف على، مشرف البحث، وما به من خطأ أو ذلل فمني ومن الشيطان.

والله تعالى نسأل الهداية والتوفيق والرشاد إنه ولي ذلك والقادر عليه.

الباحث

obeikandl.com

التمهيد

ابن الأبار حياته وشعره

أولاً: مولده ونسبه

ثانياً: نشأته

ثالثاً: حياته ومراحلها المختلفة

رابعاً: وفاته

خامساً: الظروف السياسية وتأثيرها في تكوين مراحله الشعرية

سادساً: ملامح شخصيته

سابعاً: مكانته العلمية

ثامناً: إنتاجه العلمي ومؤلفاته

obeikandl.com

obeikandl.com

التمهيد
ابن الأبار حياته وشعره

ستظل الأندلس، أو الفردوس المفقود كما يتردد ذلك على ألسنة بعض النقاد، منهلاً عذباً يمدنا بذلك الكم الهائل من الأحاسيس والمشاعر التي تملأ كياننا اعتزازاً وفخاراً، وتدفعنا باستمرار إلى التغني بما أنجزته حضارة الإسلام والمسلمين في الأندلس من منجزات، كان لها الأثر البالغ على بعض ما انتهت إليه أوربا من تقدم ورقي وشموخ، كما ستظل مورداً نستقى منه ما يغنى تراثنا الأدبي والفكري والعلمي والفقهي، ويغذى وجداننا كما غذى وجدان من سبقنا من قرائه ومتذوقيه[١].

ولا يخال الباحث مبالغاً إن قال بأن هذا التراث سيظل حياً على مدى حقب التاريخ المتلاحقة، وتعاقب أجيال الباحثين والدارسين، يكتشفون منه كل يوم جديداً، ويتابعون باستمرار ما قد تجود به الأيام من كنوز هذا القطر من جناح الغرب الإسلامي.

ومعلوم أن فن الشعر كان من أهم الفنون التي حازت قصب السبق في هذا التراث، فهو من أقدم الفنون التي نبتت في هذا البلد منذ أولياته، التي قيلت به، منذ أن رأى " عبد الرحمن الداخل "، نخلة في حديقة قصره بالرصافة فقال فيها أبياته المشهورة : [٢]

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة ... تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرب والنوى ... وطول التنائي عن بنى وعن أهلي

---

(١) عبد الرحمن حوطش : نظرات في ديوان ابن الأبار، منشورات كلية الآداب، جامعة محمد الأول، المغرب، ٢٠٠٣، ص ١٣.

(٢) جودت الركابي : في الأدب الأندلسي، دار المعارف مصر، ط ٣، ١٩٧٠، ص ٨٣.

مروراً بأجيال من الشعراء من مختلف الطبقات والمستويات والأذواق، ومصادر الأدب الأندلسى تحدثنا عن قمم أندلسية شامخة في مجال الشعر، لا تزال تملأ أسماعنا، وتروى وجداننا بما خلفته من تراث غزير.

من بحر هذا الفن الزاخر بالأسماء والعطاءات والأذواق والاتجاهات يظهر ابن الأبار القضاعى البلنسى (٥٩٥ - ٦٥٨ هـ) واحداً من أغزر شعراء القرن السابع الهجري، والأندلس يومئذ تتدحرج رويداً رويداً نحو الهاوية بسبب الخلافات والأهواء التي كانت تنخر جسم هذا البلد، تتوسى خلالها المصير المؤلم الذي سيؤول إليه.

يظهر ابن الأبار وقد غلب على شعره طابع المأساة، التي حاقت ببلدته بلنسيه، التي أنجبت كثيراً من العلماء والشعراء والشخصيات، ذات الصيت والشهرة الفائقة، ويكشف شعر ابن الأبار عن الشخصية العربية المسلمة في تلك المرحلة التاريخية الفاصلة، مظهراً شموخها وإبائها وشممها، حتى في أحلك لحظات الضعف السياسي والانكسار العسكري، فمن هو ابن الأبار؟

أولا: مولـده ونسبه [٣]

هو أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أحمد بن أبى بكر القضاعى المعروف " بابن الأبار "، من قبيلة قضاعة اليمنية، التي استوطنت الأندلس وسكنت في " أنده " إحدى ضواحي " بلنسية "، والتي ولد فيها في ربيع الثاني عام٥٩٥ هـ (فبراير ١١٩٩م)وتوفى في شهر المحرم(٦٥٨هـ)"

(٣) ابن الأبار : أعتاب الكتاب، تحقيق صالح الأشتر، مطبعة مجمع اللغة العربية، دمشق ١٩٩٦، ص ٨.

ثانياً:نشـــأته

عاش ابن الأبار ثلاثاً وستين سنة هجريه، وهى فترة ليست بالقصيرة حظي فيها من العلم بنصيب وافر " نشأ في بيت علم وفقه ونباهة، فكان والده مقدماً في حملة القرآن الكريم.كثير التلاوة والتهجد مشاركاً في حفظ مسائل العلم، ومعرفة فنون الأدب، فأشرف على تربيته وتعليمه، فأقرأه القرآن وأسمعه أخباراً وأشعاراً، وكان يمتحنه بما يقرأ على شيوخه ويختبر حفظه وناوله جميع كتبه " (٤)

وقد تأثر ابن الأبار تأثرا واضحاً بوالده وكان بمثابة الهرم الذي استقي منه شخصيته وأسلوبه فى الحياة، ويقول عنه " كان والدي رحمه الله مقبلاً على ما يعنيه شديد الانقباض بعيدا عن التصنع، حريصاً على التخلص صاحب ورد لا يكاد يهمله، كثير التلاوة والتهجد، وكان القاضي أبو الحسن بن واجب يستخلفه على الصلاة بمسجد السيدة من داخل بلنسيه "(٥)

هكذا كان والده المعلم الأول له ثم انتقل بعد ذلك ابن الأبار ينهل العلم من أجلاء عصره ومن شيوخ يمتازون بغزارة العلم وصدق الإيمان، وفصاحة اللسان والقدرة على الكتابة فاقبل عليهم وهو ذكياً فطناً بادي النباهة منذ سنواته الأولى، عاقلاً لسناً، أنعم الله علية بسرعة الفهم وقوة الذاكرة) (٦) وقد أخذ العلم عن أكثر من مائتي عالم هذا الإقبال على الدرس والعلم أتاح له أن يكون شخصية موسوعية في كل العلوم " فأخذ القرآن والقراءات عن والده والفقه والحديث والمسائل عن ابن أيوب السرقسطى (٥٣٠ - ٦٠٨ هـ) والتاريخ عن أحمد بن واجب القيسى (٥٣٧- ٦١٤) هـ وأبى سليمان الأنصاري (٥٦٢ - ٦٢١)هـ والنحو والأدب عن عبد الله البكري (٦٨٨ هـ) "(٧)

(٤) بن الأبار : التكملة لكتاب الصلة، تحقيق السيد عزت، مكتبة الخانجى القاهرة ١٩٥٥، ص ٣.

(٥) ابن الأبار : الحلة السراء، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف القاهرة ١٩٣٣، ص ١٥

(٦) ابن الأبار : المعجم، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٧ ص ١٥.

(٧) المرجع نفسه، ص٤٠

غير أن أكبر أساتذة ابن الأبار وأبعدهم أثراً في حياته هو " أبو ربيع بن سالم الكلاعى (٥٦٥ – ٦٢٤ هـ) الذي كان كبير علماء بلنسيه في عصره، يقول عنه ابن الأبار " كان إماماً في صناعة الحديث بصيراً به، وكان حسن الخط ولا نظير له في الإتقان والضبط، مع الاستبحار في الأدب والاشتهار في البلاغة، مجيداً في النظم، خطيباً مفوهاً وله تصانيف في شتى الفنون. أخذت عنه كثيراً، وانتفعت به في الحديث كل انتفاع " (٨)

وأبو الربيع الكلاعى يعد نموذجاً فريداً لطراز من أهل العلم في الأندلس، نستطيع أن نسميهم " شيوخ العصر " الذين انتهت إليهم الصدارة في علوم الدين والفقه والفتيا والأدب، وفى عصور الأندلس الأولى، كان أولئك الشيوخ من أعمدة السلطان، وكانوا جميعاً ينصهرون في بوتقة خصائصها " غزارة العلم وصدق الإيمان، وشرف البيت وفصاحة اللسان، والكتابة والخطابة والبلاغة، ثم الاهتمام بشؤون الجماعة الإسلامية والأخذ من السياسة بنصيب، مع التزام الحق والسمت والعفاف

تلك كانت الجامعة التي تخرج فيها ابن الأبار ويالها من جامعة عظيمة ! فكان من الطبيعي أن يكون لكل ذلك انعكاساً واضحاً عليه، فسار في طريق أولئك الشيوخ ناظراً إلى سيرهم، آخذاً بالأصول التي ساروا عليها، " فأصبح إماماً في العربية، عالماً بالتاريخ، بصيراً بالرجال فقيها إخباريا، أحد أئمة الحديث وعلم القراءات، برع في البلاغة والنظم، فيه فحولة ندرت بين أهل عصره "(٩) وصل إلى الحد الذي وصفه فيه ابن خلدون بقوله " كان علامة في الحديث، ولسان العرب، وبليغاً في الترسل والشعر "(١٠)

(٨) ابن الأبار : الحلة السيراء " مرجع سابق "، ص ١٨.

(٩) ابن الأبار : المعجم، " مرجع سابق " ص ١.

(١٠) ابن خلدون : تاريخ بن خلدون، دار الكتاب اللبناني بيروت، ١٩٨٣، جـ ٦، ص ٢٨٢.

كل هذا العلم الموسوعي الذي نهله ابن الأبار وأحسن استيعابه شارك في تشكيل الإطار الثقافي والفكري ولاسيما ـ الأدبي ـ حين بدأ في كتاباته .وتصانيفه الأدبية والشعرية.

ثالثاً : حياته ومراحلها المختلفة.

إن حياة ابن الأبار كانت حياة حافلة بالمتناقضات،كانت مليئة بالاستقرار والاضطراب معاً، بالمقام والترحال، بالفرح والحزن، بالضحك والبكاء، إلا أن حياة بكل هذه المتناقضات كانت تحمل هدفاً واحداً سامياً ونبيلاً،ألا وهو " الوقوف في وجه الانهيار الحضاري "، في الأندلس وسقوطها على أيدي الصليبيين، ولقد كان ابن الأبار على وعى بما يحيط الأندلس من مؤامرات وما يحيق بها من مكر وما يتهدد وجودها من أخطار فندب نفسه للوقوف في وجه ذلك الانهيار الشامل، وهذا هو السبب الحقيقي الذي جعل حياته في هذا الاضطراب، وكتب عليه فيما بعد نهاية مأساوية مفجعة، والمتتبع لحياة ابن الأبار يستطيع أن يقسمها إلى مرحلتين : -

الأولى : الفترة التي عاشها في الأندلس

والثانية : الفترة التي قضاها في تونس أو ما تسمى بمرحلة الاغتراب

وهاتين المرحلتين وما حاق بهما من ظروف وأحداث، هو الذي شكل أدب ابن الأبار لا سيما شعره، وأسبغ عليه ذلك الطابع المأساوي،فكان لابد من التعرض لهما بالرصد،لاستقراء الظروف التي ألمت به فيهما.

حياته في الأندلس

لقد عرفت حياته في الأندلس تقلبات مثيرة، تارة تقبل الدنيا عليه فينعم بطيبات الحياة مادياً ومعنوياً، وتارة أخرى تدبر عنه، فيعانى من ألم النفي والإقصاء، تفرغ في بداية حياته لتحصيل العلم حتى نبغ فيه وبعد أن نهل من أصفي منابعه لدى كبار علماء الأندلس " وبفضل علمه وذكائه وفطنته أصبح كاتباً لدى أبى عبد الله

الموحدى أمير بلنسيه [١١] وتعد تلك الفترة هي الفترة الوحيدة التي عاشها ابن الأبار في استقرار نسبي، لتبدأ بعدها حياة القلق والاضطراب، " فتولى منصب الكاتب لأبى زيد بن عبد الرحمن أمير بلنسيه الذي ختم حياته السياسية بالتجائه إلى مملكة أرغون النصرانية، واصطحب معه كاتبه ابن الأبار الذي شعر بذنب كبير تجاه وطنه، فلقد أقدم أبو زيد على ترك ديار الإسلام واعتنق المسيحية، فعاد شاعرنا مرة أخرى لبلنسيه يدافع عنها أمام الغزو النصراني وطلب صفح أهل بلنسيه وهو ينشد " [١٢]

وعلى فلتبك البواكى إننـــى أخرجت من وطنى ولست بمجـــرم

وأضعت يوم وضعت فـــى أرض بها يغدو الفصيح معظماً للأعجم

وبعد عودته تقلد مهام الوزارة لدى أبى جميل زيان بن مردنيش، وقام بمهام السفارة لمفاوضة النصارى، الذين كانوا يستردون مدن الأندلس يوما بعد يوم " [١٣] " وازداد خطر النصارى حتى حاصروا بلنسية، ودارت معركة شرسة استشهد فيها شيخ ابن الأبار " أبو الربيع الكلاعى "، وأيقن أبو جميل زيان بخطورة الموقف فأرسل ابن الأبار لطلب النجدة من أبى زكريا الحفصى صاحب تونس، وذهب ابن الأبار وأنشد قصيدته الشهيرة [١٤]

أدرك بخيلك خيل الله أندلساً إن الطريق إلى منجاتها درسا

" وبالفعل تحمس أبو زكريا وأرسل مع بن الأبار بضع سفن محملة بالمال والعتاد، ولكن اشتد الحصار وضعفت قوة بلنسية، فما كان من أبى جميل إلا أن قرر تسليم المدينة حفاظاً على أرواح أهلها في ١٧ صفر ٦٣٦ هـ، وغادر أبو جميل وابن الأبار

(١١) ابن الأبار : التكملة " مرجع سابق " ص ٤

(١٢) ابن الأبار : اعتاب الكتاب " مرجع سابق " ص ١٢

(١٣) ابن الأبار : درر السمط في خبر السبط، تحقيق عز الدين عمر موسى، دار الغرب الإسلامي بيروت، ١٩٨٧، ص ١٨

(١٤) ابن الأبار : الحلة السراء " مرجع سابق " ص ٣٥

بلنسية واستقرا في دانية، ثم قرر ابن الأبار الرحيل إلى تونس لتبدأ المرحلة الثانية في حياته "[١٥]

حياته في تونس

" حط ابن الأبار رحاله في بجاية، ومكث بها وكانت تلك الفترة من أخصب فترات إنتاجه العلمي[١٦]، ويذكر الغبرينى أنه لم يطل به المقام في بجاية، حيث استدعاه أبو زكريا الحفصى إلى تونس وألحقه بخدمته وعهد إليه بالمكاتبات السلطانية "[١٧]، غير أنه قد كان هناك خلافاً بين الأندلسين المهاجرين وأهل تونس، كان الأندلسيون معظمهم من أسر عريقة لها دور في التاريخ السياسي والعلمي والأدبي الأندلسي، فكانوا يطمعون في مناصب تعوضهم عما حدث لهم، فأثار ذلك حفيظة الحفصيين، فكانت الوقيعة فيهم تجد أذناً صاغية في البلاط الحفصى [١٨]

وقد كان ابن الأبار شديد الاعتزاز بنفسه، دائم الفخر بالأندلس وتفضيله على إفريقية، يقول ابن خلدون في ذلك " كان لابن الأبار أنفه ويأو وضيق خلق "[١٩] فزهد فيه أبو زكريا وأبعده عن ديوانه فغضب ابن الأبار ورمى بالقلم وأنشد :

أطلب العز في لظى وذر الذل... ولو كان في جنان الخلود

فبلغ ذلك السلطان فأمره بلزوم بيته، فاستشعر ابن الأبار نوعا من التسرع في تصرفه، فكتب رسالة يطلب فيها العفو، وطالت هذه الرسالة حتى صارت كتاباً، هو " أعتاب الكتاب " استشفع فيه بولي العهد أبو يحي بن زكريا، فأعجب أبو يحي بذلك

(١٥) المرجع نفسه، ص ٣٧.

(١٦) ابن الأبار : درر السمط " مرجع سابق، ص ١٩.

(١٧) الغبرينى : عنوان الدراية، تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص ٢٥٧.

(١٨) ابن الأبار : الحلة السيراء، مرجع سابق، ص٤١

(١٩) ابن خلدون: التاريخ، مرجع سابق، ص ٢٨٥.

وتشفع له، فعفا عنه السلطان وأعاده للكتابة مرة أخرى [٢٠]، وشاء الله تعالى أن يموت أبو يحي ولي العهد قبل أبيه بسنة واحدة٦٤٦ هـ، " فصار الأمر بعد ذلك إلى محمد ثاني أولاد أبي زكريا، وهو الذي عرف بالمستنصر، وأبقى ابن الأبار في عمله، وحدث خلاف بين ابن الأبار وبين أحمد بن إبراهيم الغساني وزير المستنصر، فأوقع له عند المستنصر فأمر بإبعاده إلى " بجاية "[٢١]

" وكانت تلك الفترة فرصة أتاحت لابن الأبار إنتاجا علمياً طيباً، فأنهى كتابيه " التكملة " " والحلة السيراء "، وطلب العفو من المستنصر، فعفا عنه وأعاده لتونس، غير أن الغساني " وزير المستنصر أوغر صدر الخليفة مرة أخرى على ابن الأبار وكان المستنصر كثير المخاوف خاصة وأن ابن الأبار كان من أتباع أخيه المتوفى أبي يحي وأمر بإحضار كل مؤلفاته فوجد بها رقعة مكتوب عليها :

طغا بتونس خلف سموه ظلماً خليفة [٢٢]

رابعاً: وفاته

" كان هذا البيت هو الفصل الأخير في حياة ابن الأبار عندما سمعه المستنصر غضب وأمر بضربه بالسياط وقتله قعصا بالرماح، ثم أمر بإحراقه وإحراق كل مؤلفاته، والتي بلغت خمسة وأربعين تأليفاً، وكان ذلك يوم الثلاثاء ٢١ محرم٦٥٨هـ[٢٣]

(٢٠)ابن الأبار: الحلة السيراء، مرجع سابق، ص ٤٢.

(٢١)العبرين : عنوان الدراية، مرجع سابق، ص٢٥٨.

(٢٢)ابن الأبار : الحلة السيراء، مرجع سابق، ص ٤٥.

(٢٣) الزركشي : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضور، تونس، ط ٢، ١٩٦١، ص ٢٧.

ومأساة ابن الأبار بقطع النظر عن مسبباتها، تمثل صورة من ذلك الصراع الذي كان يسود البلاط الحفصى، وخلق هذا الصراع جواً من المؤامرات والدسائس ضد بعضهم البعض، شأنهم فى ذلك شأن كل بلاط عربى فى ذلك العصر.

وذهب د / عبد السلام الهراس لإبداء التعاطف معه بقوله " وقد سجل التاريخ أن ملكاً ظالماً فتك بعالم جليل ظلماً وعدواناً، وأحرقه كما أحرق إنتاجه الضخم " (٢٤) بينما قال عبد الله الطباع إن مقتل ابن الأبار بهذه الطريقة يوصم الدولة الحفصية والمستنصر، بوصمة عار على مدى التاريخ. ويبعد عنها صفة الدولة الإسلامية (٢٥).

والحق أن الإنسان ليدهش من قسوة هذا العقاب، الذي كان واحدة من جرائم أولئك السلاطين ووزرائهم ممن حملوا في رقابهم من أوزار ودماء الضحايا ما يصمهم إلى الأبد في حساب الأخلاق وحساب التاريخ، ويبدو أن المستنصر استشعر قبح ما فعل فندم عليه ولكن هيهات يفيد الندم، وقد قتل ومثل برجل أفنى حياته دفاعاً عن الأندلس، فأطلق عليه المؤرخون لقباً غالياً هو شهيد الشعراء (٢٦).

لقد عاش ابن الأبار ثلاثاً وستين سنة هجرية، اثنتان وأربعون منها في الأندلس، والباقي في تونس، ولم يسعد هنا أو هناك ففي الأندلس عاش مروع السرب يحوم فوقه شبح الموت في كل حين.، وكتب لرجال ومدح آخرين لولا سوء الزمان لما كان لهم إلى الإمارة سبيل، لا لشيء سوى نجدة ونصرة الأندلس، ثم فقد وطنه وخرج إلى المغرب فلم يسعد في وطنه الجديد ولا هدأ له بال حتى نال هذه النهاية الفاجعة.

لقد كان ابن الأبار — رحمه الله — شهيد الشعراء بحق ليس فقط لموته ظلماً، بل لأن حياته كلها كانت كلها استشهاداً طويلاً على يد الأيام.

---

(٢٤) المرجع السابق، ص١٤

(٢٥) عبد الله أنيس الطباع : ابن الأبار، حياته وعصره، تونس، ص٦٩

(٢٦) روبار بر نشفيك : تاريخ أفريقية في العهد الحفصى، ترجمة حماد الساحلي، بيروت، ١٩٨٨، جـ ١، ص ٧٨.

خامساً: الظروف السياسية وتأثيرها في تكوين مراحله الشعرية

لقد كان العصر الذي عاش فيه ابن الأبار (٥٩٥ - ٦٨٦ هـ) حافلاً بالأحداث التاريخية الموجعة في المغرب الإسلامي بعامة، وفى الأندلس خاصة، " فلقد أخذت قوة الموحدين في الأندلس في الانحسار، ولا سيما بعد معركة العقاب (٦٠٩ هـ)، تلك المعركة التي كانت سبباً في ضعف المغرب والأندلس " [٢٧] كما كانت إيذاناً بنهاية دولة الموحدين أنفسهم، ونهاية الأندلس تبعاً لهم، وأدرك الأندلسيون وقوع بداية النهاية " فمنذ سقوط طليطلة عام ٤٧٨ هـ وتلتها قرطبة ٦٣٣ هـ ثم أشبيلية ٦٤٦ هـ، أيقنت الأندلس نهايتها المحتومة، فقد انفرط عقدها وانشطرت إلى ممالك صغيرة متناثرة متناحرة" [٢٨] وقد سجل أبو البقاء الرندى (٦٠١ – ٦٨٦)هـ وابن عبدون (ت ٥٢٧ هـ) هذا الانكسار، تحزوهما عاطفة قوية يثير شجونها ما حل بالأندلس، [٢٩].

في ذلك الحين كان الخطر يقترب من بلنسيه يوماً بعد يوم على يد الأرغونيين حتى حاصروها واستولوا عليها ٦٣٦ هـ [٣٠] وشهد ابن الأبار هذا السقوط، ولم تفلح محاولاته في استنجاد الحفصيين، لإنقاذها، فظل يصعد الزفرات تلو الزفرات من أجلها، " ولا نبالغ إن قلنا أن ابن الأبار كان هو الأديب المسؤول في تاريخ الأندلس وربما إلى آخر تاريخها الإسلامي، الذي جعل من شعره سجلاً لقضية بلده وهمومه نحوها، لأنه سجل شعري نابض بما عرفته تلك المرحلة من أحداث، وما عانته من نكبات، فقد كان ابن الأبار " ديوان الأندلس " بحق فهو تعبير صادق عن تاريخ وطنه السياسي والاجتماعي ". [٣١]

---

(٢٧) محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام فى الأندلس، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٣. جـ ٥، ص٢٨٣ وما بعدها.

(٢٨) المقري : نفح الطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت، ١٩٨٨، جـ١ ص٤٤٦ وما بعدها.

(٢٩)ابن بسام : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت ١٩٧٧، جـ٢، ص٧٢٠.

(٣٠)ابن الأبار : الحلة السراء، مرجع سابق، ص٣٣.

(٣١) محمد أمين المؤدب : استصراخ الأندلس فى شعر ابن الأبار، منشورات كلية الآداب جامعة محمد الأول، المغرب ٢٠٠٣، ص ٧٠ : ٧١

المهم لقد عاش ابن الأبار فترة من اقلق فترات تواجد المسلمين في الأندلس فقد كانت الحقبة " حقبة اضطراب وخوف واكتئاب وقتل ودمار، وطرد من الديار، وموت ذؤاب [٣٢] إنه عصر الإيذان الحقيقي بضياع الأندلس، تساقطت مدنها واحدة تلو الأخرى في يد النصارى.

"وحاولت بعض المدن الصمود في وجه الزحف النصراني، غير أن الصراعات الداخلية بين الإمارات والأطماع والأهواء قضت على أي أمل في الصمود، وشهد ابن الأبار أهم فصول هذا السقوط وتأكد من حتمية وقوعه "[٣٣] كل هذه الأحداث أثرت بشكل مباشر في بلورة المراحل الشعرية لابن الأبار، وسنحاول التعرف على بعض ملامح تلك القسمات، التي شكلت في مجموعها حياة ملؤها التعاسة تململ منها الشاعر إلى حد الثمالة.

(١) مرحلة رفض الواقع

رأى ابن الأبار أندلسه وهي تتساقط فريسة سهلة في يد النصارى، والأمراء والولاة في لهوهم وانشغالهم، لا يلقون لذلك بالاً فرفض ابن الأبار هذا الواقع وتبرم منه، وإذا كان الناس لا يزالون يحتفلون بالأعياد والمناسبات، فلقد تحولت تلك المناسبات لمراثي عند شاعرنا، يرثي فيها نفسه وأندلسه، يقول[٣٤]

أعد نظري فيما دعاني إلى الأسى وما عاداني في عيدي الفطر والنحر

تجدني من ميقاتها يا ليومهـــا مهلاً ولكن بالمراثي من الشـــعر

وقـاذف دمـع الجمار مـــوروداً إذا ما أفاض الناس فاض على النـــحر

(٣٢)ابن الأبار : درر السمط في خبر السبط، مرجع سابق، ص ١٨

(٣٣) ابن الأبار : درر السمط، مرجع سابق، ص١٢

(٣٤)ابن الأبار: الديوان، تحقيق عبد السلام الهراس، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، المملكة المغربية ١٩٩٩، ص٢٢

هذا التفتت في الواقع السياسي انعكس على نفسه فأصبح ذو نفس مضطربة، متخوفة من المستقبل الغامض الذي يكتنف الأندلس ويكتنف نفسه يقول[٣٥]

فبت كأنـــي توقـــاً وشوقاً علـــى مثل الأسـنة والشـــفار
وما حشو الضلوع ســـــوى أوار وما نوم الجـــفون ســـــوى غرار

(٢) مرحلة تفريق الشمل والضياع

ذهب أبو زيد عبد الرحمن أمير بلنسية إلى الأرغونيين طالباً نصرتهم، وأخذ معه ابن الأبار كاتبه، فشعر ابن الأبار بخيبة الأمل في أميره الخائن، وتركه وعاد لبلنسيه، غير أنه ما بين الذهاب والعودة، شعر ابن الأبار بالغربة والحزن، لابتعاده عن أهله ووطنه، وأصبح وحيداً وتضاعف حزنه، لهجر وطنه، وخيبة أمله في أميره، فأصبح مشتت النفس ضائعاً يقول[٣٦]

يا أسفي على عدم الهجـــــوع وفـــقدان الأحبـــــة والربـــوع
وشملي مزقته يد الرزايـــــا لينظـــم بعدها شمل الدمـــــوع
فكم أبكى الديار وساكنـــيها بطـــرف مسعـد ودم هـــــموع

(٣) مرحلة الأمل في التغير

" بعد عودة ابن الأبار إلى بلنسيه، أرسله أميرها أبو جميل زيان بن مردنيش لطلب النصرة من أبى زكريا الحفصى، فذهب على رأس وفد، يقوده أمل كبير في عودته بمدد وعتاد ويوقظ في نفوس الحفصيين، الغيرة على الإسلام ونجدته، بعد خيبة أمله في أمراء الأندلس، وألقى بين يدي أبى زكريا قصيدته الشهيرة :

(٣٥) المصدر نفسه، ص ٢١
(٣٦) الديوان، ص ٣٨٠

أدرك بخيلك خيل الله أندلســـا إن الطريق إلى منجـاتها درســـا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست فلم يزل منك عـز النصر ملتمســا
مدائن حلها الإشراك مبتســـــما جذلان وارتحل الإيمـان مبتئـــسا
واضرب لها موعداً بالفتح ترقـــبه لعل يوم الأعادي قد أتى وعسـى [٣٧]

ذهب أبن الأبار للحفصيين حاملاً مأساة الأندلس، التى اشتد عليها الكرب من بعض أمرائها ومن أعدائها، لذلك كانوا يؤملون في أبى زكريا الحفصى أن يكون منقذهم وملاذهم، بعد أن يئسوا من بنى عبد المؤمن بن على، كما يقول ابن خلدون " [٣٨] وكان بنو عبد المؤمن بمراكش قد فشل ريحهم، وظهر أمر بنى حفص بإفريقية فأمل ابن مردنيش وأهل شرق الأندلس في أبى زكريا الحفصى وبعثوا ببيعتهم إليه "

(٤) مرحلة اليأس

لقد كان موقف أبى زكريا الحفصى من استنجاد الأندلس به، وطلبها المعونة على لسان ابن الأبار، موقفاً لا يتلاءم مع خطورة الوضع القائم، مما لم يأت بأية نتيجة إيجابية لتدارك ذلك الانهيار[٣٩]، إذ لا يتمثل الإنقاذ إلا بالقضاء على أهل الفساد وبؤرة الضعف، ولا يحصل ذلك إلا باقتحام الأندلس، وإزالة رؤوس الشغب والشقاق فيها، وهو أمر لا يستطيعه أبو زكريا[٤٠]

" وكل ما فعله أبو زكريا، أنه بعث ببضع سفن مشحونة بالمال والطعام والسلاح، بقيادة أبى يحيى بن أبى حفص، وكانت قيمة ما بعث به مائة ألف دينار، ولكن هذا المدد لم يصل إلى المحصورين في بلنسية، لأنه لا توجد معه قوة تفك

(٣٧) المصدر نفسه، ص ٤٠٨ - ٤١٢
(٣٨) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، مرجع سابق، ص ٦٠١.
(٣٩) محمد العروسى المطوي : السلطنة الحفصية، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٦، ص ١٣٨.
(٤٠) الزركشى : تاريخ الدولتين، مرجع سابق، ص ٢٨

الحصار وتدخل الإمدادات، وعاد أبو يحيى بالمال وترك الطعام [٤١] وبعث بمدد آخر إلى أشبيلية، ولكن المدد استولى عليه العدو كما استولى على المدينة فيما بعد [٤٢]، خلاصة الأمر أن أبا زكريا الحفصى لم يكن عند مستوى الإغاثة الأندلسية، فانعكست هذه الخيبة على ابن الأبار واستحال أمله يأساً وحسرة وانكسرت نفسه، ولا عجب فتلك هي صفات كل ذي نفس أبيه، تضحي في سبيل الله والوطن يقول ابن الأبار: [٤٣]

فكيف يطيب العيش والصبر ميت ... وكيف يفيد العذل من غمرة الصد

توبخني الأقدار والشيخ عاذري ... على سفه في الحلم ياحسرتى وحدي

فوا ضيعة الأعمار في غير حاصل ... ويا خيبة الأعمار من طائل الرفد

أليس من البهتان كونك صالحاً ... وتطوى لشق الدين كشحاً على حقد

ويقول أيضاً: [٤٤]

تحيف حالتي حيف الزمان ... وصدق اليأس من كذب الأماني

وبرت في إليتها الليالي ... بتوريعي، فأنى بالأماني

فهل من آخذ بيدي أخيذ ... بعين الله شدة ما يعاني

(٥) مرحلة الاستسلام للواقع

بعد يأس ابن الأبار من نصرة الأندلس، ومحاولة إنقاذ بلنسية، أيقن أن القضية ليست قضية مدد، بقدر ما هي قضية فساد أوضاع، وانعدام قيم، " إذ بينما كان أهل أشبيلية يستنجدون بأبى زكريا الحفصى، كان محمد بن هود أمير مملكة

(٤١) ابن خلدون: العبر، مرجع سابق، ص٦٠٤.
(٤٢) المرجع نفسه، ص٦١٣.
(٤٣) ابن الأبار: الديوان، ص٤٩٥.
(٤٤) المصدر نفسه، ص٤٨٦.

هود، يساعد ملك أرغون النصراني على حصار إشبيلية حتى تم الاستيلاء عليها عام ٦٤٦ هـ "[٤٥]

وأمام هذا الوضع المحزن والمخزى، استسلم ابن الأبار للواقع الأليم، وأدرك أنه لابد من موقف واحد لمسلمي الأندلس، وترك المطامع الدنيوية والتخاذل والتشتت، فلابد من الوقوف صفاً واحداً، عندئذ لن يكونوا في حاجة إلى نجدة خارجية، فلن يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. فعاد لصفوف المقاومة يجاهد بكلمته ويقوم بدوره في بلنسية، وما من سبيل لهذا التغيير سوى في العودة إلى طريق الله، وبيع الدنيا وشراء الآخرة يقول[٤٦]

بأنفسنا للـــموت شغل وقبضـها ففيم انبساط خـــادع وفـــراغ
أما للمنايا، والأمـــاني ضـــلـــة مغار ميد، ليس منه فـــــراغ
يصاغ بنو الدنيا لتـــجريع حرهـــا فيـــا عجـــبا للعذب كيف يســاغ
وفى الباقيات الصـــالحات لو اقتنوا متاع، فمـــا للفـــانيات تـــراغ

لكن لم تفلح كلمات ابن الأبار في إحداث التغيير، أو ربما قيلت بعد فوات الأوان، وسقطت بلنسية، وسقط معها ابن الأبار في بئر سحيق من الانكسار، " واستولى النصارى عليها عام ٦٣٦ هـ وشهد ابن الأبار استسلام أميرها أبو جميل بن مردنيش، فكان ذلك الفصل الأخير لحياة ابن الأبار في الأندلس، ولم يجد سوى أن يخرج بعضاً من زفراته في رثائه لهذه المدينة الباسلة وكل مدن الأندلس الأسيرة يقول "[٤٧]

(٤٥) محمد المرسى المطوى : السلطة الحفصية، مرجع سابق، ص١٣٨.
(٤٦) ابن الأبار : الديوان ص٣٨٦
(٤٧) المصدر نفسه، ص ٣٣٦

وطن على الدائبين : الدمع والشجن يا نادب الذاهبين الأهل والوطن

واسكن إلي الصبر في إلمامها نوباً أودت على عقب المسكون بالسكن

وعبرتي في تقاضى حبرتى أبداً كما قضته سجايا الجور في الزمن

إنه تحول إلى ندب هذه البقعة من الفردوس المفقود لأنه لم يعد يملك سوى ذلك الندب، و حين يرثى بلنسيه إنما يرثى نفسه أيضاً، يقول [٤٨]

إيه بلنسية وفى ذكراك ما يمرى الشؤون دماءها لا ماءها

كيف السبيل إلى احتلال معاهد شب الأعاجم دونها هيجاء ها

ويقول أيضا[٤٩]

بلنسية يا عذبة الماء والجني سقيت وإن أشقيت صوب الرواجس

ومن عجب أن الديار أو أهل وأندبها ندب الطلول الدوارس

(٦) مرحلة الاغتراب

" بعد سقوط بلنسيه في يد الأسبان، هاجر ابن الأبار لتونس، واستخدمه البلاط الحفصى حتى أصبح من رجالات الدولة المرموقين، وأسند إليه أبو زكريا لحفصى رئاسة ديوان الإنشاء والمكاتبات [٥٠]، وقد شجع ملوك الحفصيين على هجرة العلماء الأندلسيين إليهم محاولين بذلك، أن يجعلوا إرث الحضارة الأندلسية، لتونس عاصمة دولتهم، فشجع ذلك أبو زكريا ثم ولده المستنصر، الذي اعتبر تونس وارثة شرعية للحضارة الإسلامية، خاصة بعد سقوط بغداد[٥١]، ولكن لم ينعم ابن الأبار بهذا المنصب، ولم يكن ذلك هدفاً له، بل جاء لتونس بضوء

(٤٨) ابن الأبار : الديوان، ص٣٦.

(٤٩) المصدر نفسه، ص ٣٦

(٥٠) محمد العروسى المطوى : السلطنة الحفصية، مرجع سابق، ص٢١٦

(٥١) المرجع نفسه، ص٢١٦

شاحب من الأمل، ليخرج ما في نفسه المثقلة بالمواجع، أملاً في أن يحاول الحفصيون نصرة الأندلس مرة أخرى، وكان لهذا السبب دائم المدح لهم، ويضمن هذا المديح دعوته لهم بنجدة الأندلس، أو محاولة الحفاظ على البقية الباقية منها يقول [٥٢].

نـــادتك أندلس فلب ندائـــــها واجعل طواغـــيت الصليب فداءها
رش أيها المولـى الكريم جـناحها واعقد بأرشية النجاة رشـــاءها

على هذا المنوال سارت حياته في الغربة، لم يهنأ بما وصل إليه أو تستقر نفسه، بل كان دائم الاضطراب والقلق، زاد من هذا الاضطراب " مؤامرات البلاط الحفصى التي تسببت في نفيه إلى بجاية مرة أخرى حتى كتبت له تلك النهاية المأساوية المفجعة "[٥٣].

" وابن الأبار ساعد خصومة في ذلك، فلقد كان صاحب عزة وأنفة وضيق خلق [٥٤] لقد جاء ونصب عينيه تمثل الأندلس، وما حل بها فكان، دائم البكاء عليها وطلب نصرتها، فضاق به ملوك الحفصيين، فكانت حياته في الغربة تسير في قلق واضطراب، دائم التذكر والبكاء على أهله ووطنه يقول [٥٥]

الحـــــــمد لله لا أهل ولا ولـــد ولا قـــــرار ولا صبر ولا جـلـد
كـــان الزمان لنا سلماً إلى أمـــــد فعاد حرباً لنا لما انقـضى الأمـــد

(٥٢) ابن الأبار : الديوان، ص ٣٥
(٥٣) محمد العروسى المطوى : السلطنة الحفصية، مرجع سابق، ص ٢١٦.
(٥٤) ابن خلدون : العبر، مرجع سابق، ص ٦٥٤.
(٥٥) ابن الأبار : الديوان، ص ١٨٩.

(٧) مرحلة البكاء والحنين

في ظل هذا القلق والألم كان شاعرنا دائم البكاء والحنين لوطنه الغابر " الأندلس " وذكرياته وصباه وأصدقائه وأهله، و لم يجد لهم بديلاً في الغربة، فحاول أن يفرغ ما كان يجثم على صدره من هموم شتى فيقول [٥٦]

أحـــن إلى ترب ثوى سكـــــناً به فألثمه شوقاً لمن وســـــد التربا
وأطبق أجـفانى أحاول غفـــــوة فيأبى هناك الهدب أن يصل الهدبا
لعمرى لقد نال الردى منـــى الــذى أراد، وخلى الصـــبر مقتسماً نهبا
فغيض من مـاء الحياة معـــــينه وضيـــق من ذرعى بما صنع الرحبا
فلو أننى طوعـت قلبـــــى ساعة قضى نحبه لهفاً على من قضى نحـبا

ويقول أيضاً [٥٧]

أنوح حماماً كلما ذكر الشـــــرق وأبكى غماماً كلما لمع الـــــبرق
ويغبطنى فى سكب أدمعى الحيـــا وتحسدنى فى ندب أربعى الـــورق

(٨) مرحلة الزهد

أخيراً لم يبق أمام شاعرنا إلا منفذا واحداً يسترع إليه، ويطمئن بين جنباته، بعد كل هذا الفشل والتشتت والترحال والمؤامرات والترنح بين اليأس والرجاء، فقد كان أعداء ابن الأبار كثر بإفريقية الحفصية، وخذله السلطان الحفصى، كما خذله أمراء الأندلس، إزاء هذه الرحلة الحافلة، لم تفارقه التعاسة والشقاء حتى بلغ من العمر عتيا، ويعبر عن ذلك بقوله : [٥٨]

(٥٦) المصدر نفسه، ص ٥٧.
(٥٧) المصدر نفسه، ص ٤٠٦.
(٥٨) ابن الأبار : الديوان ص ٤٤٨

علت سنـــى وقدرى فى انخفـــاض وحكـــم الرب فى المربوب ماضـــى
إلى كم أسخـــــ! الأقـــدار حتى كـــأنى لم أكن يوماً براضـــى

لم يجد سوى طريق الزهد واحة يتنفس فيها، بعد هذا اللهاث المتواصل، فترك الدنيا والناس واتجه شعره هذا الاتجاه الذي ينحو فيه منحى الصوفية يقول[٥٩]

دنياك للأخرى سبـــيل ســـابل فاعمل لها إن الموفق عـــامـــل
وأعـــد زاداً للرحيـــــل فإنما أيـــام عمرك لو عـقلت مـــراحل
وأسبق مشيـبك بالمتاب حزامـة فـــله حـلول عاجل أو آجـــل
بسل على المرء امتـــداد حياتـه وإزاءه للمـــوت لـــيث باســـل

وكان في مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) وآل بيته عوضاً له أهله وأصدقائه وأحبائه الذين فقدهم في رحلة الحياة المعذبة يقول [٦٠]

لمثال نعل المصطفى أصفى الهـوى وأرى النســلـو خطيئة لن تغـفرا
وإذا أصافـــــحه وأمسح لاثماً أركـــانه فمعززاً وموقـــرا
أفلا أمرغ فيه شيبى راشـــداً وأريق دمعـى وســطه مستبصـرا

وبذلك كانت التحولات والظروف السياسية ـ التي سادت في عصر ابن الأبار ـ كانت تجد لها انعكاساً واضحاً وقوياً في إنتاجه الشعري، " ومن خلال استقرائنا للأدب العربي عامة، نجد أنه قد غلب اتجاه الغيرية على الذات، فصرنا نعرف كل شئ عن ممدوحى الشعراء، لكننا نجهل أحياناً ماله علاقة بذات الشاعر، وما يقال عن الأدب المشرقي ينسحب على نظيره الأندلسي غير أنه كانت هناك

(٥٩) المصدر نفسه، ص ٢٦٦
(٦٠) المصدر نفسه، ص ٤٦٢

أعمال وأدباء كسروا تلك القاعدة، وكان ابن الأبار واحداً من هؤلاء فسار شعره في خط موازى لحالته النفسية وظروفه السياسية والاجتماعية ومعبراً عن العصر، بل يمثل وثيقة حية وذات مصداقية عالية عن مرحلة سقوط الأندلس، وهذه ميزة قد لا تحضر إلا لدى العلماء والأفذاذ، وميزة تضاف على مزايا ابن الأبار، تفرض علينا اهتماماً بالرجل وفاءً لما قدمه من تراث حافل "[٦١].

لقد كانت اللحظة الحضارية ـ التي عاشها ابن الأبار في الأندلس في النصف الأول من القرن السابع ـ كانت شبيهة بتلك اللحظة التى عاشها أبو الطيب المتنبي في النصف الأول من القرن الرابع، فأطماع النصارى في بلاد المسلمين أعلنت عن نفسها، سيوفهم إلى الرقاب مشهورة، ورماحهم إلى الصدور مسددة، والمستضعفون من الرجال والنساء والولدان لا يجدون من دون الله ولياً ولا نصيراً، فالأمراء بأسهم بينهم شديد، يتقاتلون من أجل ملك زائل، وفى غفلة منهم، هناك عدو يتربص بهم الدوائر، ويسعى إلى أن يخترمهم واحداً واحداً.

وأمام هذا الواقع الأليم، كان كل ذي نفس أبيه يلتمس لنفسه وقومه مخرجاً من الذل، وكان ابن الأبار واحداً من هؤلاء، فصار يجأر بالشكوى لما يصيب المسلمين، ويستنجد ويستغيث من أجل إنقاذ ما يمكن إنقاذه من الأندلس المهضومة، التي انفطر قلب الشاعر عليها.

سادساً: ملامح شخصيته

لقد كانت حياة ابن الأبار حياة حافلة مليئة بالمتناقضات والأحداث، وفى كل أطوارها لم يذق فيها سوى الشقاء والغربة والنفى وأخيراً انتهت نهاية فاجعة، وباستقراء بسيط لحياته، نحاول التعرف على ملامح هذه الشخصية العجيبة في تاريخ الأندلس، وتبرز ملامح شخصية ابن الأبار فيما يلي[٦٢] : -

(١) الطموح

---

(٦١) حمد الصباحي: مأساة ابن الأبار من خلال ديوانه، منشورات كلية الآداب، جامعة محمد الأول، المغرب ٢٠٠٣، ص ٦٧

(٦٢) ابن الأبار: المعجم، مرجع سابق، المقدمة

لقد كان ابن الأبار طموحاً، منذ طفولته، فقد أقبل على العلم بنهم شديد، يدرس ويتعلم ويحلل ويفهم " فقد أخذ العلم عن مائتي عالم [٦٣]، حتى وصل فيه إلى حد النبوغ والإبداع، الأمر الذي أهله بتولي الكتابة لدى أبى عبد الله الموحدى أمير بلنسيه، وهو في العشرين من عمره وظل يتنقل بين المناصب إلى أن صار وزيراً لأبى جميل بن مردنيش أمير بلنسية، وبعد هجرته لتونس تولى أيضاً ديوان الإنشاء عند أبى زكريا الحفصى ثم من بعده لولده المستنصر [٦٤]

ولم يقف طموحه عند المناصب السياسية بل كان طموحاً في العلم أكثر، فألف أكثر من أربعين كتاباً [٦٥] في مختلف فروع العلم، للأسف ضاع معظمها بسبب إحراقها على يد المستنصر وكان طموحه الأكبر، والذي ظل ملازماً له، هو إنقاذ الأندلس من السقوط، فظل يتنقل ويسافر ويطلب النجدة من كل الأقطار التى توسم فيها النصرة.

(٢) الفخر بوطنه والاعتزاز بنفسه

لقد كان شاعرنا دائم الفخر بأندلسيته، وتفضيله على افريقية، يحث الأمراء والسلاطين الحفصيين على نجدتها، وربما هذا ما جعل أبا زكريا الحفصى يضيق به ويبعده عن بلاطه [٦٦]، كما كان معتزاً بنفسه وبشخصيته والذي كان يتحول إلى طبع حاد وهجوم لاذع، إذا مُست شخصيته، لا يقبل إهانة أو تجريحاً من أحد، " وعندما أسند أبو زكريا الكتابة إلى أبى العباس الغساني ليبعد ابن الأبار عن ديوانه رمى بالقلم وأنشد : [٦٧]

أطلب العز في لظى وذر الذل ولو كان في جنان الخلود

(٦٣) ابن الأبار : المعجم، مرجع سابق، ص ٤.

(٦٤) ابن الأبار : التكملة، مرجع سابق، ص ٤.

(٦٥) ابن الأبار : الديوان، ص ١٣.

(٦٦) ابن الأبار : الحلة السيراء، مرجع سابق، ص ٤٢

(٦٧) التنبكتي : نيل الابتهاج، مرجع سابق ص ٢٥٧

فكان صاحب حدة مزاج نشأ عليها، ولم يستطع أنه يتخلص منها، كذلك كان لديه شعور بالأنا المفرطة، والذي لا ينسجم تماماً مع الطقوس التي يجب أن يتسربل بها كتاب الدواوين، فهذا المنصب الحساس، يقتضي من السياسة والخلق وحسن التدبير عكس ما كان عليه ابن الأبار، ولذلك كانت حياته الإدارية محاطة بالتنافس والتآمر.

(٣) الغضب

كان ابن الأبار بالإضافة إلى كل ذلك سريع الغضب والانفعالات، لا يملك نفسه " فكان ذو أنفة وعجب وضيق خلق "[٦٨]، فساعد بذلك خصومه على الإيقاع به والتدبير له وحياكة المكائد التي كانت سبباً في إنهاء حياته، " فحينما تعرض له أبو الحسن على بن شلبون المعا فرى البلنسى ـ وكان من خصومه ـ فسبه وسخر من نحافته وضعف بنيته قائلاً[٦٩]

لا تعجبوا لمضرة نالت جميع النـاس صادرة من الأبار
أو ليس فأراً خلقة وخليقة والفأر مجبول على الإضرار

فغضب ابن الأبار ورد عليه سريعاً قائلاً: [٧٠]

قل لابن شلبون مقال تنزه غيري يجاريك الهجاء فجار
إنا اقتسمنا خطتينا بيننا فحملت بره واحتملت فجار

(٤) صدق الإيمان وغيرته على الإسلام

لقد كان شديد الإيمان على دين الله الذي يحارب، وعلى مسلمي الأندلس الذين يذبحون، ويغتصبون، ويطردون من بلادهم، ولا عجب " فقد كان الرجل

(٦٨) ابن خلدون : العبر، مرجع سابق، ص ٦٥٤.
(٦٩) ابن حلدون : التاريخ، مرجع سابق، ص ٢٨٣
(٧٠) ابن الأبار : الديوان، ص ٤٦٥.

عالماً فقيهاً ورعاً، متبحرا في علوم الإسلام، ولا يكاد كتاب من الكتب الموضوعة في الإسلام، إلا وله فيه رواية إما بعموم أو بخصوص "[٧١]

حفظ القرآن صبياً، وتفقه شاباً، وألف عالماً جليلاً، فلا عجب أنه تؤطر حياته بإطار الإيمان ويكون هو المرجعية التي تحكم سلوكه في الحياة، فظل يجاهد في بلنسيه، ويطلب النجدة من الأمراء ويذهب هنا وهناك ملتمساً نصرتهم، وعندما خذلوه ذهب لتونس، وعندما هاجر بعد سقوط بلنسيه، ظل في كل أشعاره يذكرهم بمسلمي الأندلس، وما حل بهم لعلهم يتحركون، مما جعلهم يضيقون به، لكنه لم يترك هذه القضية ولم يسلم رايتها حتى استشهد على يد المستنصر، يقول: [٧٢]

خوضوا إليها بحرها يصبح لكـــم رهواً وجوبـــــوا نحـوها بيداءها
وافى الضـــــريح مثوباً يدعو لها دار من يصطفى قصد الثواب ثـواءها
الجهاد فلا تفتـــكم ساحـــــة ساوت بهـــا أحياؤها شهـداءها

(٥)الوفاء للأصدقاء والأحبة:

كان وفياً لأصدقائه وأحبائه، وكم انفطر حزناً على وفاتهم، وخرجت زفراته الحارة محملة بأنين صادق على لوعة الفراق، فرثى أصدقائه، وأساتذته الذين فارقوه إلى دار الحق والعدل... وكان منهم أستاذه الفقيه، أبو الربيع الكلاعى الذي استشهد في معركة " أنيشة " وهو يحارب دفاعاً عن بلنسية، رثى هذا الهرم الذي طالما نهل من علمه وفقهه، وإن دل هذا فإنما يدل على وفاء الرجل، وإخلاصه وحسن خليقته، يقول في قصيدة ملؤها الحزن والألم والبكاء [٧٣]

ألما بأشـلاء العـــلا والمكـــارم تقد بأطـــراف القـــنا والصـــوارم
سقى الله أشـــــلاء بسفح أنيشـــة سوافح تزجـــيها ثقال الغـمائـــم

(٧١) المراكشي : الذيل والتكملة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة بيروت ١٩٧٣، جـ٦، ص ٢٥٣.
(٧٢) ابن الأبار : الديوان، ص ٣٨
(٧٣) المصدر نفسه، ص ٢٨٨

وإني لمحـــزون الفؤاد صديـــعه حلافاً لســـال قلبه عنك ســـالـــم

وأبكى لشلو بالعـــراء كما بكـــى زياد لقـــبر بين بصري وجـــاسـم

تلك هي أبرز ملامح شخصية ابن الأبار، وتلك الشخصية جمعت متناقضات شتى، وسربلت تلك الملامح حياته وأوصلته إلى ما وصل إليه من مناصب ونفى وقتل، و لقد شكلت تلك الملامح الفلك، الذي دارت حوله كل أشعاره، بل كل حياته، هذا الفلك كان " الأندلس " ونصرتها ومحاولة نجدتها مما كانت فيه.

سابعا : مكانته العلمية

لقد كانت الأجيال ـ التالية لعصر ابن الأبار ـ كانت أرفق به من أيامه ومن نفسه، فتعاقب المؤرخون والنقاد على إنصافه وتكريمه، والإشادة به وبمكانته العلمية." وقد اتفق الذين ترجموا لابن الأبار على تحليته بالأديب الحافل، والشاعر النحرير، والناثر البليغ الإخباري والحافظ المتقن إلى غير ذلك من أوصاف العلماء الكبار (٧٤)

يقول عنه ابن الزبير المعاصر له " إنه محدث بارع، حافل ضابط، متقن وكاتب بليغ، وأديب حافل، حافظ كان متفنناً متقدماً في الحديث والأدب، سنياً متخلقاً فاضلاً، قتل ظلماً وبغياً (٧٥)

والواقع أن ابن الأبار لم تفارقه حياته العلمية حتى وهو في أحلك الأزمات وأقسى الظروف، لأنه جبل على محبة العلم منذ نعومة أظفاره، وقد يسر له مناخه العائلي جميع الأسباب ليكون عالماً، واستحق الإشادة من عبد الملك المراكشي على الرغم من نقد المراكشي لابن الأبار في كتاباته إلا أنه قال عنه " وكان آخر رجال الأندلس براعة واتقاناً، وتوسعاً في المعارف، وافتنانا، محدثاً مكثراً، ضابطاً عدلاً ثقة، ناقداً يقظاً، ذاكراً للتواريخ على تباين أغراضها مستبحراً في علوم اللسان نحواً ولغة وأدباً، كاتباً بليغاً، شاعراً مفلقاً مجيداً، عنى بالتأليف ويخت فيه وأعين عليه

(١٤) من الأبار الديوان، المقدمة

(١٥) شمس الدين الذهبي سير علام النبلاء، موسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ج ٣ ص ٣٣٧

بموفور مادته، وحسن التهدى لسلوك جادته فصنف مؤلفات برز في إجادتها وأعجز عن الوفاء بشعر إفادتها"[٧٦]

وتعكس لنا هذه الشهادة صورة عن المعرفة الموسوعية التي كانت لابن الأبار، وكانت لديه ضروب العلم والمعرفة متساوية، ولذلك استحق تلك الأوصاف التي خلعها عليه المراكشي، والذي كان ناقداً قاسياً لابن الأبار في كتاب " تكملة الصلة "، حيث انتقد منهجه، وتتبع أخطائه.

" وبالفعل أصبح ابن الأبار " شيخ الأندلس بدون منازع، بعد وفاة أستاذه الكلاعى " ولقبه ابن الأحمر " بسراج العلوم، وقد شعت من هذا السراج أضواء نيرة وهاجة في شتى الاتجاهات"[٧٧]

ويعقب المراكشي " ودارت بيه وبين أدباء عصره مكاتبات ظهر فيها شفوفه وتبريزه، ولا سيما النظم، فإنه بهرج فيه شبههم إبريزه، ومما استفاض ذكر استحسانه، سينيته التي يستصرخ فيها أبا زكريا الحفصى بقوله :

أدرك بخيلك خيل الـلـه أندلسا إن الـطريق إلى منجاتها درسـا[٧٨]

أما الذهبي فيقول عنه " هو الإمام العلامة البليغ الحافظ المجود المقرئ الكاتب المنشئ، فصيح العبارة، وافر الحشمة ظاهر التجميل من بلغاء الكتبة والشعراء "[٧٩] ويؤكد ذلك المقري بقوله " هو الإمام الحافظ الكاتب الناظم الناثر المؤلف الراوية[٨٠] ويوضح الغبرينى (٦٤٤ – ٧١٤ هـ)، الذي عاصر شباب ابن الأبار أنه كان " متبحراً

(٧٦) المراكشي : الذيل والتكملة، مرجع سابق، ص ٢٥٨.

(٧٧) ابن الأبار : الديوان، ص ١٢.

(٧٨) المراكشي : الذيل والتكملة، مرجع سابق، ص ٢٥٩

(٧٩) الذهبي : سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ص ٣٣٦.

(٨٠) المقري : نفح الطيب، مرجع سابق، جـ ٢، ص ٥٨٩

في العلوم الإسلامية، ولا يكاد كتاب من الكتب الموضوعة في الإسلام إلا وله فيه رواية إما بعموم أو بخصوص، وهو ممن لا ينكر فضله، ولا يجهل نبله له تآليف حسنة ونزعات في علم الأدب بارعة مستحسنة" (٨١)

وتحدث عنه ابن خلدون في تاريخه (٦/ ٢٨٣ – ٢٨٥)، الزركشى في تاريخ الدولتين (ص ٢٠ – ٢ ٧) كل هؤلاء أثنوا على ابن الأبار وقدروه قدره الصحيح كواحد من أكبر من أنجبته الأندلس في ميادين التاريخ والأدب وعلوم الإسلام، وأنصفوه من قاتله وأجمعوا على أنه قتل مظلوماً، بل وصفه بعضهم بالشهيد (٨٢)

وفاقت عناية المحدثين بابن الأبار، عناية الأقدمين، وكان أولهم المستشرق الهولندي " راينهارت آن دوزى Rinhart An Dozy في كتابه " مقدمة للبيان المغرب Introduction au Bayan al – Moghrib- L eyed- ١٨٤٨ الذي قرر " أنه حافظ جمع فأوعى، وحفل صدره من العلم بالمغرب والأندلس وبتاريخ الإسلام عامة ما لم يصل إليه إلا القلائل من علماء القرن السابع الهجرى وأن أسلوبه الأدبي قوى جميل فيه فحولة ندرت بين أهل عصره" (٨٣) "

وتناوله بعد ذلك كثير من المستشرقين منهم " جو زيف موللر " "G-Moller " والراهب اللبناني " ميخائيل الغزيرى " واضع الفهرس الأول للمخطوطات العربية في مكتبة الإسكوريال بأسبانيا كما كتب" مكيلي أمارى Micelly Amary " عن ابن الأبار في كتابه " تاريخ مسلمي صقلية "، كذلك كتب عنه " بونس بويجس B- Boiges في معجمه عن أهل الأندلس "، ويعتبره " كونثالث بالنيثا C- Balenthia أعظم مؤرخ وأديب أنجبته الأندلس " فهو يمتاز بملكة قوية، وعاطفة جياشة، تذكرنا بفحولة العرب وأسلوبهم في الحياة " (٨٤)

---

(٨٢) ابن الأبار : الحلة السيراء، مرجع سابق، ص

(٨٣) المرجع نفسه، ص ٨

(٨٤) كونثالث بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلس ترجمة، حسين مؤنس مكتبة الثقافة الدينية القاهرة، ط ٢، ص ٢٧٩

كذلك أشاد به النقاد المحدثون من العرب أمثال " جورجى زيدان، والدكتور / عبد العزيز عبد المجيد، والفريد البستاني وإبراهيم الإبيارى وأنيس عبد الله الطباع والدكتور صالح الأشتر [٨٥]

كلهم أجمعوا على أنه يعتبر من أكبر من أنجبت الأندلس من أهل العلم ومن أولاهم بالثقة التقدير

ويعد الدكتور / عبد الكبير العلوي أفضل من تحدثوا عن ابن الأبار وعن شعره بقوله " إنه كان من أعلام الشعراء النابهين، والأدب العربي وأندية الشعر وجاوزت شهرتهم حدود بلادهم، وطبقت الآفاق شرقاً وغرباً، وتستجاد أساليبهم، وتستعذب قصائدهم، ويستشهد بروائعهم وتضرب بهم الأمثلة في الأصالة والالتزام والإبداع والابتكار، فلقد نال ابن الأبار التقدير، بشا عريته المتميزة فقد كان شعره يأخذ الألباب ويؤثر في النفوس، لما يفيض به وجدانه، وتجيش به عاطفته، وتجود به قريحته من درر شعرية فريدة، مما جعل إنتاجه الشعري ـ على كثرة وتشعب أغراضه وتعدد بحوره وقوافيه ـ تراثاً مليئاً بالمشاعر النبيلة، والعواطف الصادقة، والحكم والمواعظ البليغة، والمواقف الغيورة، ويزرع في النفس، مشاعر الخير، وعواطف الود، وحسن التعامل، ويحث على التمسك بالمبادئ الفاضلة، والصبر والجهاد في سبيل نصرة الحق وإعلاء كلمة الله [٨٦] لقد تبوأ ابن الأبار مكانة، يستحق أن يجلس بها وسط القمم الأندلسية الخالدة.

ثامناً : إنتاجه ومؤلفاته

إن مأساة ابن الأبار لم تشمل ذاته فقط، بل تجاوزتها إلى إنتاجه الفكري والأدبي، وما كان عنده من تراث أندلسي، فلقد ألف أكثر من أربعين كتاباً [٨٧] لم يصلنا منها سوى ثمانية فقط، وبذلك ندرك مدى الخسارة العلمية والحضارية، التى أصيب بها التراث الأندلسي، بسبب تلك المأساة التي تسبب فيها " المستنصر الحفصى "، وبقدر

(٨٥) ابن الأبار : الحلة السيراء، مرجع سابق، ص ١٢- ١٣.

(٨٦) ابن الأبار : الديوان، ص ٣

(٨٧) محمد العروسى المطوى : السلطنة الحفصية، مرجع سابق، ص ٢١٧.

غزارة هذا الإنتاج كان أيضاً غزيراً في تنوعه في صنوف العلم المختلفة فله على سبيل المثال لا الحصر[٨٨].

الأربعون حديثاً عن أربعين شيخاً من أربعين مصنفاً لأربعين عالماً من أربعين طريقاً إلى أربعين تابعاً عن أربعين صاحباً بأربعين اسماً من أربعين قبيلاً في أربعين باباً.

قصد السبيل وورد السلسبيل في المواعظ والزهد

إعصار الهبوب في ذكر الوطن المحبوب

معدن اللجين في مراثي الحسين

شرح صحيح البخاري.

أنيس الجليس ونديم الرئيس

الانتداب للتنبيه على زهر الآداب

وغيرهم كثير مما لا يتسع له المقام هنا، أما ما وصلنا من مؤلفاته وإنتاجه الضائع :

أعتاب الكتاب.

المقتضب من كتاب تحفة القادم.

التكملة لكتاب الصلة.

الحلة السيراء في أشعار الأمراء.

مظاهرة المسعى الجميل

معجم أصحاب أبى على الصدفي.

درر السمط في خبر السبط

ديوانه الشعري

---

(٨٨) ابن الأبار : الديوان، ص ١٣.

obeikandl.com

سامح الله " المستنصر، الذي حرمنا وحرم التراث العربي، من زخم هائل من الفكر، والعلم،

والأدب، والفقه لم يصلنا منه سوى النذر اليسير.....

obeikandl.com